العالمة البغدادية

شهدة الابري ورواياتها في تواريخ النساء

بقلم

الدكتور حسن عيسى علي الحكيم

الجامعة المستنصرية / كلية الفقه في النجف الاشرف

الفقيهة المحدثة شهدة بنت ابى نصر أحمد بن الفرج بن عمر الابري (٤٨٢ ـ ٥٧٤ هـ) بغدادية المولد والوفاة، دينورية الاصل، نشأت في محيط بغداد العلمي، وتتلمذت على شيوخها وعلمائها منهم جعفر بن احمد السراج، وطراد بن محمد الزينبي (١)، وسمعت من ابى الخطاب نصر بن احمد بن البطر، وابى عبدالله الحسين بن احمد بن عبدالقادر بن يوسف، وابى بكر محمد بن احمد الشاشى (٢)، كما انها روت عن عبدالملك بن محمد السامرى (ت ٤٩٣هـ) (٣)، وابيها أحمد بن الفرج الدينورى (ت ٥٠٦ هـ) الذى كان من مشاهير علماء بغداد ومحدثيها (٤)، فاصبحت السيدة شهدة عالمة محدثة، سمع منها خلق كثير، وكان لها السماع العالى الحقت فيه الاصاغر بالاكابر (٥)، ولجودة خطها عرفت بالكاتبة او الكاتبة المسندة (٦)، كما كانت تسمى «مسندة العراق» (٧)، حتى اشتهر ذكرها وبعد صيتها (٨)، لاسيما في علم الحديث وذلك لعلو اسنادها (٩)، وقد وصفت هذه العالمة بالثقة والصلاح والعبادة، كما عدت صاحبة بر وخير (١٠) ونظراً لمقامها العلمي والفكرى اصبح لها ذكر في معجم التراجم العالمية، المسمى بيوكرافى يونفرسـل Biographie Universal المطبوع في باريس عام ١٨٤٣ م فقد ترجم لها في هذا المعجم الكاتب الفرنسى المسيو جوردت في باب «الايف» باسم فخر النساء شهدة بنت أحمد وقال: «بغدادية انصرفت الى دراسة الفقه واللاهوت فبلغت في هذه العلوم درجة عالية ودروسها كانت مجمعا للعلماء المشهورين جداً في ايامها، وكانوا شديدى الرغبة في السماع منها ولذلك اجتمع عندها كثير من طبقات الناس. ويظهر ان هذه الشهرة العظيمة وعلوها هما اللذان انالاها لقب فخر النساء ومعناه مجد النساء ولانعرف لها كتاباً، وان كان كثير من العلماء افتخروا ان يكونوا في عداد تلاميذها (١١).

لقد تتلمذ على العالمة شهدة الابري، الحافظ ابو القاسم ابن عساكر (ت ٥٦٢ هـ) وقد ذكرها في كتابه «ذيل تاريخ بغداد» (١٢)، وابو سعد عبدالكريم السمعانى (ت ٥٦٢ هـ) الذى ذكرها في مادة «الابري» من كتاب الانساب بالقول: «شهدة بنت الابري فهى صاحبة الخط الحسن وكانت لها قرابة الى امير المؤمنين المقتفى لامر الله، وكانت يقال لها الكاتبة سمعت اباها وابا عبدالله الحسين بن احمد طلحة النعالى وغيرهما، كتبت عنها اوراق بسيرة في دارها برحبة الجامع» (١٣)، كما تتلمذ عليها ابو الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزى (ت ٥٩٧ هـ) الذى كان يشير الى تلمذته عليها بقوله «اخبرتنا شهدة بنت احمد الابري» (١٤)، وقال في مشيخته «اخبرتنا شهدة الكاتبة بقراءتى عليها في صفر سنة ٥٥٧ هـ» (١٥)، وقال سبط ابن الجوزى: «روى عنها جماعة منهم جدى» (١٦). وعند ترجمة ابن الجوزى لجعفر بن أحمد المقرئى (ت ٥٠٠ هـ) قال: «قرات عليها كتابه المسمى بمصارع العشاق بحق سماعها منه» (١٧)، وتشير المصادر التاريخية والرجالية الى عدد آخر من العلماء والمحدثين قد تتلمذوا على السيدة شهدة الابري منهم: الحافظ عبدالغني والموفق ابن قدامة والحافظ عبدالقادر الرهاوى وابراهيم بن الخير وابو الحسن بن الجميزى وابراهيم الكاشغرى والاعز ابن عليق وابو محمد عبدالله الجوينى وابو عبدالله الاربلى وعبدالرزاق بن سكينة وابوبكر قاضى حران وعلي بن حميدان وابوبكر بن الخازن ومحمد بن ابى البدر وعبدالعزيز بن محمود الاخضر وابو الحسن علي بن المعمر بن ابى القاسم الواسطي (١٨)، يقول الدكتور مصطفى جواد: «ومن تلامذتها الخليفة الامام الناصر لدين الله فانه روى عنها في كتابه الذى الفه وسماه «روح العارفين» (١٩)، ويقول السيوطى: «واجاز للناصر لدين الله جماعة منهم ابو الحسين عبدالحق اليوسفى، وابو الحسن علي بن عساكر البطايحى وشهدة، واجاز هو لجماعة فكانوا يحدثون عنه في حياته ويتنافسون في ذلك رغبة في الفخر لا في الاسناد» (٢٠)، وروى عنها الحافظ ابو علي الحسن بن خلف بن معزوز التلمسانى المغربى كتاب «الاموال» للحافظ ابى عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) وعبدالله بن أحمد بن محمد ابن قدامة المقدسى الذى يقول: «قرات هذا الجزء وما قبله من كتاب الاموال لابى عبيد رحمه الله على شهدة بنت أحمد بن الفرج الابري من اصل سماعها» (٢١)، وقد ذكر كل من الذهبى والمنذرى وابن الفوطى جماعة من تلاميذ السيدة شهدة الذين سمعوا عليها (٢٢).

لقد كانت بين المحدثة شهدة والخلافة العباسية روابط عائلية ، فهي قد تزوجت ثقة الدولة ابا الحسن علي بن محمد الدويني (٤٧٥ ـ ٥٤٩ هـ) الذى كان يخدم اباها ابا نصر أحمد بن الفرج الابري ، فزوجه ابنته الكاتبة شهدة فقربه الخليفة المقتفى لامر الله ووكله فبنى مدرسة بباب الازج (٢٣)، ومن الجدير بالذكر ان السيدة شهدة قد نقلت العلم عن زوجها ابى الحسن الذى كان من اعيان العراق واماثله ، متودداً متواضعاً خيراً كثير الصدقات ، اديباً ، شاعراً ، مقتدراً لطيفاً ، وكان مقرباً الى الخليفة المقتفى لامر الله، يشاوره ويدنيه منه ، وهو بدوره كان يسعى الى اعادة الدولة العباسية الى حالة من القوة والاستقلال بتخليصها من النفوذ الاجنبى ، وبنى مدرسة لاصحاب محمد بن ادريس على شاطىء دجلة في باب الازج من بغداد عرفت باسم المدرسة الثقتية نسبة الى ثقة الدولة وباسم مدرسة الاصحاب ، نسبة الى اصحاب محمد بن ادريس (٢٤)، ويشير ابن الجوزى الى علاقة شهدة بالخلافة العباسية بقوله : « وتزوجت ببعض وكلاء الخليفة وعاشت مخالطة للدار ولاهل العلم ، وكان لها بر وخير وقرىء عليها الحديث سنين وعمرت حتى قاربت المائة» (٢٥)، وقيل جاوزت التسعين (٢٦)، ويؤيد هذه الصلة الوثيقة ما كان عند وفاتها في الرابع عشر من المحرم عام ٥٧٤ هـ فقد صلى عليها في جامع القصر وازيل شباك المقصورة لاجلها وحضرها خلق كثير وعامة العلماء ودفنت في مقبرة باب ابرز (٢٧)، ويقال ان الخليفة صلى عليها وشهدها ارباب الدولة (٢٨) .

كانت الكاتبة الابري قد انشأت في مدينة بغداد برحبة جامع القصر رباطاً للمتصوفة والزهاد ، بقى قائما بعد وفاتها فقد ذكره ابن الدبيثى عند ترجمته لابى بكر محمد بن موسى بن عثمان بن الحازمى الشافعى (ت ٥٨٤ هـ) بقوله : « قرأت على الحافظ ابى بكر محمد بن موسى بن عثمان الحازمى كتابه ببغداد برباط الكاتبة برحبة جامع القصر الشريف » (٢٩)، وكان عبدالله بن خميس ابو المظفر الفقيه من أهل أهر بأذربيجان قد قدم بغداد ودرس الفقه فيها ، وتكلم في المسائل الفقهية ، وناظر بعض الفقهاء، واعاد الشافعى ، وولي خدمة الصوفية برباط الكاتبة شهدة بنت أحمد الابري برحبة جامع القصر (٣٠)، ويبدو ان السيدة شهدة قد قلدت في هذا الباب زوجها ثقة الدولة الانبارى الذى بنى مدرسة في باب الازج والى جانبها رباطاً للمتصوفة (٣١) .

ان الروايات المنقولة عن المحدثة شهدة الابري والمودعة في كتاب « المنتظم » لابن الجوزى ، تناولت اخبار النساء عبر مختلف العصور ومعظمها مرفوع الى شيخها ابى محمد جعفر بن أحمد السراج ، منها النص المتعلق بنساء لقمان بن عاد الذى انفرد به ابن الجوزى ، اذ لم نجد له ذكراً في تاريخ الطبرى (٣٢)، وغيره من المصادر ، وفي الحديث عن جميل بن معمر (ت ٦٥ هـ) روت السيدة شهدة من شعره الوجدانى ابياتاً طريفة في بثينة (٣٣)، وكذلك روت لقيس بن الملوح (ت ٨٠ هـ) بعض اشعاره في ليلى (٣٤). وفي غضون الحديث عن عبدالله بن جعفر (ت ٨٠ هـ) ذكر ابن الجوزى نصاً مسنداً ومرفوعاً الى السيدة شهدة يتناول هيام يزيد بن معاوية بجارية كانت لعبدالله بن جعفر ، وهو حديث طويل ، سرده ابن الجوزى على شكل قصة او رواية (٣٥)، وفي معرض حديثه عن عمرو بن عبدالله التيمى (ت ٨٢ هـ) الذى كان أمير البصرة قال : انه اشترى جارية من رجل من أهل البصرة بمائة الف درهم ، وبعد انصرافها انشد ذلك الرجل ابياتاً فيها (٣٦) .

والملاحظ ان الشعر الغزلى الذى روته السيدة شهدة عند حديثها عن النساء ، يعد من غرر الشعر العربى ، وقد حفظ كتاب « المنتظم» نصوصاً شعرية اغفلتها دواوين اصحابها المطبوعة ، وعند الحديث عن غيلان بن عقبة (ذى الرمة) (ت ١٠١ هـ) ذكر انه راى جارية سوداء في الكوفة واقفة على باب دارها فاستحسنها ووقعت في قلبه فاومأ اليها وقال : يا جارية هلا اسقيتنى ماء، فاخرجت له كوزاً فشرب ، واراد ان يمازحها فقال : يا جارية ما احر ماءك، فقالت : لو شئت لاقبلت على عيوب شعرك ، وتركت حر مائى وبرده ، واورد ابياتاً بعد ذلك لذى الرمة (٣٧)، وفي نص استقاه ابن الجوزى عن السيدة شهدة عند ترجمته ليزيد بن عبدالملك (ت ١٠٥ هـ) انه شغف بحب جارية اسمها حبابة ، وكانت قد شرقت بحبة رمان فماتت على أثر ذلك ، فاقام عندها يزيد بن عبدالملك في الدار حتى نتنت، وعند دفنها وقف على قبرها وانشد (٣٨) .

فـإن تسـلُ عنـك النفس او تـدع الصبـا
فبـالنفس أسلـو عنـك لا بـالتجلـدِ

وكان قد اراد بهذا البيت انه يسلو بنفسه لا بالتجلد كما هو المتعارف عند بقية الناس ، عند وفاة عزيز او حبيب ، وهو ينبىء عن فجيعته بفقد هذه الجارية .

وقد روت السيدة شهدة ان ابراهيم بن المهدى (ت ٢٢٤ هـ) قد اختفى عند اخته علية بنت المهدى في زمن المأمون ، وكانت تكرمه غاية الاكرام ، وقد وكلت به جارية قد ادبتها وانفقت عليها الاموال ، وكانت حاذقة، راوية للشعر ، ثم اورد ابن الجوزى نماذج شعرية غزلية لابراهيم بن المهدى في تلك الجارية (٣٩) ويلاحظ في جميع النصوص التى استقاها ابن الجوزى عن شيخته شهدة الابري انها تدور في الحب والغزل والغرام، وتوضيح بعض العلاقات العاطفية بين الرجل والمرأة ، عدا نصاً واحداً ذكرت فيه ان شفوانة العابدة (ت ١٧٥ هـ) قدمت مكة مع زوجها لاداء فريضة الحج ، وكانا يطوفان في البيت ويصليان فيه ، وقد اوردت دعاءاً لكل منهما (٤٠)، ولم اجدبين النصوص التى روتها السيدة شهدة ما يشير الى علميتها ومكانتها في الفقه والحديث كما عبرت عنها المصادر التى تناولت ترجمتها ، وذلك يصرفنا عن التعرف على هذه العالمة في العلوم الاسلامية .

هوامش البحـــث

(١) ابن الجوزى : المنتظم ١٠/ ٢٨٨

(٢) ابن الاثير : الكامل ١١/ ٤٥٤، ابن خلكان : وفيات الاعيان ٢/ ٤٧٧، الذهبي: العبر ٤/ ٢٢٠.

البافعي : مرآة الجنان ٣/ ٤٠٠، ابن العماد: شذرات الذهب ٤/ ٢٤٨.

(٣) ابن الجوزى : المنتظم ٩/ ١١٧

(٤) السمعانى : الانساب ١/ ٩٥

(٥) ابن خلكان : وفيات الاعيان ٢/ ٤٧٧، الذهبى : العبر ٤/ ٢٢٠ اليافعى : مرآة الجنان ٣/ ٤٠٠.

القنوجى : التاج المكلل ص ٥٦

(٦) الذهبى : العبر ٤/ ٢٢٠

(٧) ن. م : دول الاسلام ٢/ ٨٧ ، اليافعي : مراة الجنان ٣/ ٤٠٠ ابن العماد : شذرات الذهب ٤/ ٢٤٨

(٨) ابن خلكان : وفيات الاعيان ٢/ ٤٧٧

(٩) ابن الاثير : الكامل ١١/ ٤٥٤

(١٠) الذهبي : العبر ٤/ ٢٢٠ اليافعي : مراة الجنان ٣/ ٤٠٠، ابن العماد . شذرات الذهب ٤/ ٢٤٨

(١١) مصطفى جواد: في التراث العربي (المعاهد الخيرية النسوية) ١/ ١٢٤ انظر بيوكرافي اونيفيرسل
٣/ ٢٤٠

(١٢) مصطفى جواد : هامش تكملة اكمال الاكمال ص ٨٤

(١٣) السمعاني : الانساب ١/ ٩٦

(١٤) ابن الجوزي : ذم الهوى ص ١١٣، ١١٩، ١٢١، ١٢٢، ١٣٤، ٢٧٠ وغيرها تلبيس ابليس
ص ٢٦٦، ٢٧٠، ٣٤٨

(١٥) ابن الجوزي : المشيخة ورقة ١١٧

(١٦) سبط ابن الجوزي : مراة الزمان ٨/ ق ١ ٣٥٢

(١٧) ابن الجوزي : المنتظم ٩/ ١٥١

(١٨) مصطفى جواد . هامش تكملة اكمال الاكمال ص ٨٤ في التراث العربي (فخر النساء) ١/ ٣٦

(١٩) ن. م : في التراث العربي (فخر النساء) ١/ ٣٣ ـ ٣٨

(٢٠) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٤٤٨

(٢١) مصطفى جواد : في التراث العربي (فخر النساء) ١/٣٣ ـ ٢٣٨

(٢٢) المنذري : التكملة ٥/٥، ٥٢، ٥٤، ٨٢، ٩٠، ١٠٢، ١١٩، ١٧٢ وغيرها
٦/٥، ٢٢، ٣٩، ٤٠، ٤٨، ٦٨، ٧٩، ٨٢، ١١٥، ١٢٧ وغيرها
ابن الفوطي : تلخيص مجمع الاداب ٤/ق ١ ٦٧٧، ٧٨٦

(٢٣) ابن الاثير : الكامل ١١/ ٢٠٠، ابن خلكان : وفيات الاعيان ٢/ ٤٧٨

(٢٤) مصطفى جواد : في التراث العربي (فخر النساء) ١/ ٤٠ ـ ٤١

(٢٥) ابن الجوزي : المنتظم ١٠/ ٢٨٨، سبط ابن الجوزي. مراة الزمان ٨/ق ١، ٣٥٢

(٢٦) ابن خلكان : وفيات الاعيان ٢/ ٤٧٧، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ٦/ ٨٤

(٢٧) ن . م

(٢٨) سبط ابن الجوزي مرأة الزمان ٨/ق ١ ٣٥٢

(٢٩) مصطفى جواد : في التراث العربي (المعاهد الخيرية النسوية) ١/ ١٢٢

(٣٠) ن . م ١/ ١٢١ ـ ١٢٢

(٣١) ن م

(٣٢) ابن الجوزي . المنتظم ٨/ق ١ ورقة ١١٥

(٣٣) ن . م ٨/ ورقة ١٨ ب

(٣٤) ن . م ٨/ ورقة ٤٦ أ ـ ب

(٣٥) ن . م ٨/ وقة ٩٢ ب ـ ٩٤ ب

(٣٦) ن . م ٨/ ورقة ١٠٣ أ ـ ب

(٣٧) ن . م ٧/ ورقة ٢٤ أ

(٣٨) ن . م ٧/ وقة ٤٩ أ

(٣٩) ن . م ١١/ ورقة ٤١ أ

(٤٠) ن . م ٩/ ورقة ٦ ب

مصــادر البحــث ومراجعـه

ابن الاثير : عز الدين ابو الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن عبدالكريم الشيباني (ت ٦٣٠ هـ).

١ ـ الكامل في التاريخ ، دار صادر ، بيروت ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦ م

ابن تغري بردي . جمال الدين ابو المحاسن يوسف الاتابكي (ت ٨٧٤ هـ)

٢ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، مطابع كوستاتسوماس وشركاه / القاهرة، بلا تاريخ.

ابن الجوزي : جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي (ت ٥٩٧ هـ)

٣ ـ تلبيس ابليس ، او نقد العلم والعلماء، الطباعة المنيرية / القاهرة ١٣٦٨ هـ

٤ ـ ذم الهوى ، تحقيق مصطفى عبدالواحد، الطبعة الاولى ١٣٨١ هـ/ ١٩٦٢ م مطبعة السعادة، مصر

٥ ـ المشيخة، مخطوطة مصورة عن المكتبة الظاهرية بدمشق، في مكتبة المجمع العلمي العراقي / بغداد،
تحت رقم ٩٨

٦ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية / حيدر اباد الدكن / الطبعة الاولى
١٣٥٩ هـ والاجزاء المخطوطة المصورة في مكتبة المجمع العلمي العراقي / بغداد عن مكتبة احمد الثالث
وتراخانة في استانبول

ابن خلكان . شمس الدين ابو العباس احمد بن محمدبن ابي بكر (٦٠٨ ـ ٦٨١ ه)

٧ ـ وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، تحقيق الدكتور احسان عباس دار صادر / بيروت

الذهبي : شمس الدين ابو عبدالله محمد بن احمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ)

٨ ـ العبر في خبر من غبر، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد وفؤاد سيد، مطبعة حكومة الكويت ١٩٦٠ ـ ١٩٦٦ م

٩ ـ كتاب دول الاسلام، تحقيق فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى ابراهيم الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ م

سبط ابن الجوزي : شمس الدين ابو المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي (ت ٦٥٤ هـ)

١٠ ـ مراة الزمان في تاريخ الاعيان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية / حيدر اباد الدكن ، الهند.
الطبعة الاولى ١٣٧٠ هـ/ ١٩٥١ م

السمعاني : ابو سعد عبدالكريم بن محمد بن منصور التميمي (ت ٥٦٢ هـ)

١١ ـ الانساب، اعتناء مرجليوث، والنسخة التي صححها الشيخ عبدالرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، مطبعة مجلس دائرة المعارف الثعمانية / حيدر اباد الدكن، الهند الطبعة الاولى
١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣ م

السيوطي : جلال الدين عبدالرحمن بن ابي بكر (ت ٩١١ هـ)

١٢ ـ تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة/مصر، الطبعة الاولى ١٣٧١ هـ/ ١٩٥٢ م

ابن العماد : ابو الفلاح عبدالحي الحنبلي (ت ١٠٨٩ هـ)

١٣ ـ شذرات الذهب في اخبار من ذهب، عنيت بنشره مكتبة القدسي / القاهرة ١٣٥٠ هـ

ابن الفوطي : كمال الدين عبدالرزاق بن أحمد الشيباني (٦٤٢ ـ ٧٢٣ هـ)

١٤ ـ تلخيص مجمع الاداب في معجم الالقاب، تحقيق الدكتور مصطفى جواد الطبعة الهاشمية، ومطابع وزارة الثقافة والارشاد القومي / دمشق ١٩٦٢ ـ ١٩٦٥ م

القنوجي : ابو الطيب صديق بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري (١٢٤٨ ـ ١٣٠٧ هـ) .

١٥ ـ التاج المكلل من جواهر مآثر الطراز الجزء الاول، تصحيح وتعليق الدكتور عبدالسليم شرف الدين، المطبعة الهندية العربية / بومباي ١٣٨٢ هـ/ ١٩٦٣ م

مصطفى جواد . الدكتور

١٦ ـ في التراث العربي، بحث بعنوان «فخر النساء» وبحث بعنوان «المعاهد الخيرية النسوية» اخراج
محمد جميل شلش وعبدالحميد العلوجي دار الحرية للطباعة / بغداد ١٩٧٥ م

١٧ ـ هامش كتاب «تكملة اكمال الاكمال في الانساب والاسماء والالقاب» لجمال الدين ابي حامد محمد بن علي المحمودي المعروف بابن الصابوني (ت ٦٨٠ هـ) مطبعة المجمع العلمي العراقي .

المنذري : زكي الدين ابو محمد عبدالعظيم بن عبدالقوي (٥٨١ ـ ٦٥٦ هـ)
١٩٥٧ م

١٨ ـ التكملة لوفيات النقلة، تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، مطبعة الاداب / النجف الاشرف
١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م

اليافعي : ابو محمد عبدالله بن اسعد بن علي بن سليمان المكي (ت ٧٦٨ هـ)

١٩ ـ مرأة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، مطبعة دائرة المعارف
النظامية / حيدر اباد الدكن، الطبعة الاولى ١٣٣٨ هـ